نسيب لحود : الحلم والأمل

نبيل دي فريج

وزير دولة لشؤون التنمية الإدارية

ندوة نسيب لحود : ذكرى وعبرة

٢٠١٥/٢/٦

يعتبر مثل فرنسي أن على الإنسان أن يعيش أحلامه بدل أن يحلم حياته.

Au lieu de rêver ta vie, vis ton rêve

جعل نسيب لحود من هذه العبرة فلسفة حياة.

كان يحلم بدولة مستقلة لا تخضع لأي نفوذ خارجي.

دولة تتولى وحدها، عبر مؤسساتها الدستورية والعسكرية، مسؤولية الدفاع عن سيادتها وشعبها وأرضها وثرواتها.

دولة يُحترم فيها ميثاق العيش الواحد.

دولة تتبنى خيار الاقتصاد الحر وتؤمّن العدالة الاجتماعية والفرص المتكافئة.

تثبت كل من عرف وصادق أو خاصم نسيب لحود من أن هذا الرجل كان يعيش أحلامه ويسعى بكل قواه لجعلها حقيقة يعيشها مع اللبنانيين.

كان يعيش حلمه أيا تكنِ التحديات والصعاب، وأيا تكن التضحيات.

عاش أحلامه خلال كافة مراحل نضاله السياسي، سواء في المجلس النيابي أو في مجلس الوزراء وأيضا في لقاء قرنة شهوان ومن ثم في اجتماعات البريستول وأيضا في تجمع قوى ١٤ آذار.

وبالفعل،

كان نسيب لحود يؤمن بضرورة بناء الثقة بين اللبنانيين أيا كانت طائفتهم أو انتمائهم السياسي،

كان يحلم بدولة يعاد فيها بناء هذه الثقة عبر الابتعاد عن لغة التفرقة التي تزيد الشرخ فيما بينهم.

لذلك، اعتمد، لتحقيق هذا الحلم، ما كان يسميه "السلوك المسؤول"، هذا السلوك الذي يتألف من مجموعة قواعد تتيح إحراز تقدم نوعي في مجتمع تعددي ومتنوع مثل لبنان.

يتمثل السلوك المسؤول باعتماد الخطاب العقلاني والنبرة الهادئة والحوار الموضوعي، وبالامتناع عن استعمال مفردات الاستفزاز والتحدي والتخوين ونبذ الآخر.

إن هذا الأسلوب جعل من مداخلات نسيب لحود لحظات تاريخية حيث كان الجميع يستمع باهتمام لما سيدلي به، بدءاً من خصومه الذين كانوا يخشون انتقاداته.

كان نسيب لحود مرشحاً للانتخابات النيابية، لأنه كان يحلم بأن هذه المحطة تشكل جسر العبور لإعادة بناء دولة على أسس الحداثة والعدالة.

لذلك، اعتبر أن الانتخابات تشكل خطوة مفصلية لإحياء النظام الديموقراطي، ولتجديد الطبقة السياسية.

اختار، منذ العام ١٩٩٢، أن يعيش هذا الحلم، فهو خاض الانتخابات النيابية، خلافاً لرأي أغلبية المسيحيين في حينه، التي خوّنت من رفض مقاطعة هذه الانتخابات، علماً أن هؤلاء اعترفوا، فيما بعد، أن نسيب لحود كان على صواب وانهم كانوا على خطأ.

كان يخوض الانتخابات أيا كان القانون، وان كان غير عادل، وبالرغم من لجوء بعض خصومه إلى ممارسات لا تليق بالديموقراطية.

امتنع، عام ٢٠٠٩، عن خوض الانتخابات النيابية، بسبب ظلم حلفائه وليس خوفاً من قوة أخصامه، لأنه كان يعتبر أن فوز فريقه السياسي يشكل المقياس الأهم.

كان نسيب لحود يحلم بمجلس نواب يتألف من ممثلين للامة جمعاء، وليس من وكلاء عن طائفتهم أو منطقتهم.

نواب، يؤمنون بأن من واجبهم المساءلة والمحاسبة كي لا تفقد الديموقراطية جوهرها ومعناها.

لذلك، عاش هذا الحلم في كل مواقفه ومداخلاته واقتراحاته، سواء في الجلسات المخصصة لمنح الحكومات الثقة أم خلال جلسات الاستجواب أم عند مناقشة القوانين لا سيما قوانين الموازنة.

كان يطالب بإصلاح الإدارة السياسية للبلاد لأنه يشكل الممر الإلزامي للخروج من نظام شبه الدولة إلى نظام الدولة، أي إلى الدولة التي تحترم دستورها واستقلال قضائها وإرادة ناخبيها وحرياتهم.

كان لا يكتفي بالانتقاد، لأن ذلك فقط لا يسمح له أن يعيش حلمه.

كان يعرض آراءه ويقترح الحلول للازمات التي يعاني منها كل من الدولة واللبنانيين، ومنها الفساد والاستدانة وإعادة هيكلة الدين العام وتقليص العجز.

وكان يعي اهمية تنمية المناطق المحرومة وخلق فرص العمل في المناطق النائية وتأمين العدالة الاجتماعية ومواجهة تفاقم البطالة والهجرة.

كان يعتبر أن الإصلاح الإداري لا يقتصر على تخفيض حجم الإدارات المتضخمة، المدنية وغير المدنية، لأن هذا الإصلاح يجب أن يترافق مع خلق شبكات أمان للفائض من الموظفين، تكفل لهم

ولعائلاتهم الحماية الاجتماعية والصحية، وتسهل اندماجهم في القطاع الخاص.

كان هاجسه محاربة الفساد والاحتكار وانعدام المنافسة، لأنها تنتهك حقوق اللبنانيين. وفي هذا الاطار، لا بد أن نستذكر أنه اقترح، عام ١٩٩٣، بأن تحتفظ الدولة لنفسها بحق إنشاء شركة أو أكثر للهاتف الخليوي، لتأمين المنافسة الحقيقة في هذا القطاع ومنع احتكاره. إلا أنه لم يؤخذ، في حينه، باقتراحه. ليُعترف له، عام ٢٠٠٤، انه كان على حق.

ناضل من أجل أن يتحمل المجلس النيابي مسؤوليته في إقرار المحكمة الدولية التي اعتبر أنها تشكل أفضل وسيلة لإحقاق العدالة ومنع الاغتيالات وحماية اللبنانيين من القتل والإجرام.

كان نسيب لحود حامياً للدستور،

لأنه كان يحلم بدولة يحترم فيها الدستور، هذا الكتاب الذي ينظم علاقات اللبنانيين ويجسد وحدتهم وإرادتهم في العيش معا، ورغبتهم بتقرير مصيرهم في دولة واحدة ومستقلة، تحترم حرياتهم وحقوقهم وتؤمن المساواة فيما بينهم.

لذلك، ناضل تحت سقف الدستور واتفاق الطائف، لأنهما يتناسبان مع التركيبة اللبنانية ولأنهما يوزعان السلطات ضمن مبدأ اسماه "جماعية السلطة".

ولهذه الأسباب، حارب، أيا كان موقعه، وبالوسائل الديمقراطية، النظام الأمني الذي أنشأه الوجود السوري في لبنان، والذي كان أحد عناصره من أنسبائه.

جابه هذا النظام لأنه عطل النظام الدستوري اللبناني وشل عمل المؤسسات، ولأن هذا النظام لا يؤمن بتداول السلطة، ولأنه انقلب على اتفاق الطائف وأفرغه من مضمونه.

حلم بزوال هذا النظام، وعاش حلمه، اعتباراً من ١٤ آذار ٢٠٠٥، خلال ثورة الارز التي اندلعت بعد استشهاد الرئيس رفيق الحريري.

ولا بد من الاشارة، وفي ذكرى مرور عشر سنوات على الاغتيال، ان نسيب لحود اعتبر ان الرئيس رفيق الحريري، كان من كبار صانعي الوفاق الوطني اللبناني، وانه عمل طوال حياته لاستعادة لبنان استقلاله ومكانته بين دول العالم، واعتبر أنه كان للرئيس الشهيد حلم رافقه في كل مفاصل سيرته الحافلة، كان حلم بناء الدولة الديموقراطية والعلم والحداثة والاقتصاد المزدهر المنفتح على العالم.

كان نسيب لحود يرفض تغيير "قواعد اللعبة" المنصوص عليها في الدستور.

كان يرفض هذا الأمر لأنه كان يحلم بدولة ينتظم فيها عمل المؤسسات الدستورية، وحيث لا يجوز لأي كان، وبإرادة منفردة ولأسباب شخصية أو سياسية، تغيير القواعد التي ترعى عملها.

لذلك، وقف أكثر من مرة معارضاً التمديد على أشكاله لأنه كان يعتبر أن هذا الإجراء ينسف مبدأ أساسي من مبادئ النظام الديمقراطي أي دورية الانتخابات.

ولهذه الأسباب، عارض تمديد ولاية الرئيس الراحل الياس الهراوي وتمديد ولاية الرئيس أميل لحود وتمديد ولاية مجلس النواب وتمديد ولاية المجالس البلدية.

كان يتباهى بمواقفه المناهضة للتمديد عبر إيرادها في سيرته الذاتية.

وفي هذا السياق أيضا، انتقد المطالبة، لدى تشكيل الحكومة، بالثلث المعطل، لأنه كان على اقتناع أن هذا الثلث يشكل خطراً على حسن سير العمل الحكومي الذي يجب أن يكرس لإدارة البلاد وتأمين مصلحة اللبنانيين.

كان يسعى لفرض احترام النصوص التي ترعى إجراءات انتخاب رئيس الجمهورية .

كان يعتبر أن النائب يتمتع بحق اختيار مرشحه لانتخابات رئاسة الجمهورية، إلا أن الدستور لم يمنحه حق مقاطعة جلسات الانتخاب، وتعطيل الآلية الديمقراطية الطبيعية لانتخاب الرئيس.

لذلك، كان يدعو إما إلى التوافق على مرشح أم إلى خوض معركة ديموقراطية يقترع فيها كل نائب لمرشحه، ليصبح بعد ذلك الرئيس المنتخب رئيسا لكل لبنان، يصون الموالاة والمعارضة على حد سواء.

كان يميز بين قناعته القانونية وقناعته السياسية. وبالفعل، وفي موضوع نصاب الجلسة المخصصة لانتخاب رئيس للجمهورية، كانت قناعته القانونية تؤكد أن النصاب يتأمن بحضور نصف عدد النواب زائداً واحداً، إلا أن قناعته السياسية كانت تدفعه إلى اعتبار أن مصلحة لبنان تقتضي حضور جميع النواب هذه الجلسة.

كان نسيب لحود يحلم، عندما تولى مهام وزارية، بأن الدولة اللبنانية هي المرجعية، الأولى والأخيرة، لأي عمل سيادي على الساحة اللبنانية سواء أكان عملا ديبلوماسياً أم سياسياً أم مقاوماً.

لذلك، قاد معركة، ضمن الحكومة التي كان عضواً فيها، لا سيما في لجنة صياغة بيانها الوزاري، من أجل أن يعيش حلمه وفقاً لقناعاته.

طالب بأن يمارس "**تحت كنف الدولة**" "حق لبنان بشعبه وجيشه ومقاومته في تحرير أو استرجاع مزارع شبعا وتلال كفر شوبا والجزء اللبناني من قرية الغجر المحتلة والدفاع عن لبنان في مواجهة أي اعتداء والتمسك بحقه في مياهه، وذلك بكل الوسائل المشروعة والمتاحة".

اصر على موقفه، خوفاً من أن يلف لبنان بكفن، وتحفظ على هذه الفقرة وان اعتبر بعض حلفاؤه أن خوض معركة إدخال هذه العبارة ليس ضرورياً.

لم تكن بالنسبة له عبارة "في كنف الدول" مجرد ترف فكري إنما كانت تشكل قضية جوهرية.

وبالفعل، كان يعتقد انه من الواجب الاعتراف لحزب الله بدوره التاريخي في تحرير الجنوب من الاحتلال الإسرائيلي إلا أن هذا الاعتراف لا يعفي هذا الحزب من احترام حق الدولة اللبنانية، وحدها دون غيرها، احتكار حيازة السلاح واتخاذ قرار الحرب والسلم.

كان مقتنعاً بأنه يقتضي، عبر حوار يرعاه رئيس الجمهورية، تحديد وسائل الاستفادة من قدرات حزب الله الدفاعية وعلى أن يتحقق هذا الأمر عبر انضوائه تحت لواء الدولة وحصر الأمور بأمرتها.

كان نسيب لحود مرشحاً لرئاسة الجمهورية، لأنه كان يحلم أن يثبت عبر تجربته بأن رئيس للجمهورية يتمتع بصلاحيات أساسية.

كان يؤمن أن اتفاق الطائف يحفظ لرئيس الجمهورية دورا محوريا في الحياة السياسية والدستورية، لأن الرئيس لم يعد رئيس السلطة التنفيذية إنما اصبح ضابط الإيقاع بين المؤسسات الدستورية والمؤتمن على الدستور وتوازن السلطات وتعاونها.

كان على يقين أن قوة رئيس الجمهورية، لا تكمن فقط في إلى صلاحياته الدستورية، إنما أيضا في تصرفه كقدوة أخلاقية ومعنوية، وفي امتلاكه رؤية متعالية عن المنافع الذاتية ويتمتعه بقدرة قيادية.

لذلك، اعد برنامجاً مفصلاً يتضمن رؤيته للبنان وحدد فيه الأسس الكفيلة لإدارة بلد سيد مستقل، من دون وصاية أو تدخل خارجي.

وطرح في هذا البرنامج، رؤيته لمهام رئيس الجمهورية لجهة حماية لبنان من أربعة أخطار اعتبر أنها داهمة: خطر العدوانية الإسرائيلية؛ وخطر تحويل لبنان ساحة لصراعات المنطقة؛ وخطر الانهيار الاقتصادي والهجرة؛ وخطر التطرف والإرهاب.

وأخيرا، وفي الختام،

كان نسيب لحود يحلم بأن لا تلين قوى ١٤ آذار "قبل أن تتأكد أن سيادة لبنان أصبحت بخير، وان الأطماع الخارجية بلبنان قد ردعت وان اللبنانيين باتوا يمسكون فعلا بزمام مصيرهم، وان بناء الدولة القوية الديموقراطية العادلة قد بدأ بالفعل".

ذهب وترك لنا مهمة أن نعيش هذا الحلم.

لذلك، يبقى على كل من يؤمن بمبادئ ثورة الأرز، أن يعمل بجهد وأن يناضل، كما كان ليفعله نسيب لحود فيما لو كان معنا، من أجل أن نحقق هذا الحلم.